# الخدر العربى

## جنة العربى

أحب العربى المرأة حبا شديداً لا تدانيه عاطفة أخرى من حيث العمق والعنف ، وأسرف فى ذلك إسرافاً عظيماً ؛ فجعل منها ريحانة لقلبه فى دنياه . ونعيماً مقيماً فى أخراه . ولم يَصْبُ إلى المجد والسؤدد صبوته إليها . فكانت المرأة الجميلة جنته التى يحلم بها ، ويضحّى من أجلها بكثير من راحته ، ويستشهد فى سبيلها باسماً راضياً ، ويأخذ من أجلها بالزهد أحياناً . فنعيمه عبارة عن عالم وسيع أنيق ، فيه من الطبيعة المعتدلة المناخ أروع مشاهدها ، وفيه من النساء البارعات الجمال أقصى ما يبلغه خيال الشاعر المبدع . ومن العدل القول إن العربى الذى تمثل جنته آهلة بالحور العين ، الناعسات الطرف ، كأنهن الدر المكنون ، المطهرات العفيفات ، لهو رجل بلغ حبه المرأة مبلغاً عظيماً حقاً .

إن إكثار الجاهلى من عدد النسوة فى خيمته أو منزله ، ثم تعدد الزوجات والسرارى فى الإسلام ، كل هذا مظهر من

مظاهر التدله العنيف. ولعله أيضاً وجه من وجوه التقيد بالأساليب الحضرية التى أخذت بها الأمم الغالبة أيام المصريين والبابليين والأشوريين والفرس والإغريق والرومان . وللعرب بعض العذر فى ذلك ، لنزول القسم الأكبر منهم فى منطقة جغرافية ملتهبة الأرض والسماء ، تنضج فيها المرأة بسرعة كما تنضج الأثمار النادرة التى تزكو هناك .

الطبيعة سريعة العمل ، جمة النشاط ، كما هى العادة فى البلدان الحارة ، فيقصر الزمن الذى يفرق بين أوائل النضج وأواخره . ويذبل الجمال باكراً لتراوح شباب المرآة بين الخامسة عشرة والثلاثين[1] ، ولتلاشى هذا الشباب بعد ذلك وأخذه بالأفول . فتبدأ الفتنة بالخبو عندئذ ، إلى أن تصبح أثراً بعد عين فى الأربعين ، فتتحول المرأة إلى جدة أو مربية أو قينة من قينات المنزل ، تعمل فى ترتيبه والسهر على الطعام والنظافة ، ويزهد الرجل فى محاسنها الزائلة ، ويتطلع جاهداً إلى ما يروى ظمأه إلى الجمال ، أو يكون قد بدأ بالاستقاء من منابع الحسن قبل ذلك .

كان أفول العربيات الأصل أو المولد بطيئاً بالنسبة إلى الغربيات الأجنبيات اللواتى ولدن أو نشأن فى البلدان المعتدلة

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٤٧ .

أو الباردة . فإن تهافت هؤلاء كان خاطفاً ، يسرع الذبول إلى بشراتهن الصافية ، ويدب الخمول فى مفاصلهن ، ويأخذ العرق بتخديد وجوههن ، وترهل أجسامهن ؛ فتعفى على قسماتهن . ويذبلن ذبول الوردة المقطوعة من منبتها .

## حدود الجمال

أحب العرب الجمال مطلقاً ، لأن تذوقهم الحسن ، كتذوقهم الفنون الجميلة عامة والشعر خاصة ، يتفلت من التخصيص ، يحسون بالحلاوة والعذوبة واللطافة إحساساً غامضاً لا يقيده تحديد ، ولا تحصره تخوم . وتختلف أقيستهم باختلاف الأشخاص ، لأن الجمال اعتبار ذاتى أو احساس داخلى فردى ، والعرب كسواهم من الشعوب التى أغرمت بالجمال ، تذوقوه غامضاً غير محدود ، فلم يفسدوا مفاتن الطبيعة بتهاويل الأوزان والألوان والأبعاد . غير أنهم تعارفوا على بعض شروطه ، فجعلوا منها أصولا عامة ، وألحقوا بها الكثير من الفروع التى تقتضيها الأذواق الفردية .

فى كتب الأدب صفحات عديدة عن هذه الأصول والفروع ، فلا يكتمل مصنف منها ما لم يضم بين دفتيه بعضها شعراً أو نثراً ، مقتبساً من أساطين الأدب ، أو منقولا عن الاختصاصيين

فى فنون الجمال الذين خبروه نظرياً وعملياً ، وأدركوا مدى كل صفة من الصفات وميزة من الميزات .

يؤثرون العبلاء الجسم ، ولا يقبلون على الأجسام الرقيقة النحيلة الخفيفة الوركين ، أو ما يسمونها الزلاء . لأن نحافة الوركين فى نظر الخبراء منهم من الصفات المكروهة التى تنقص من أثمان الجوارى ، وتشيع فى حب الأزواج لزوجاتهن شيئاً من الفتور . وأحبهن إليهم النحيلات الأعلى الجسيمات الأدنى ، أو كما يقولون ، اللواتى أعلاهن قضيب وأسفلهن كثيب ، أو من قال فيهن المغنى إسحق الموصلى :

ظباء كاليعافير كنوس فى المقاصير
وأدبرن بأعجاز كأوساط الزنابير (١)

وغالوا فى كره النحيفات ، حتى استعاذ الشاعر بالله منهن ، فقال :

أعوذ بالله من زلاء فاحشة كأنما نيط ثوباها على عود(٢)

كما أسرفوا فى مدح الثقيلات الردف ، حتى بلغوا الإعجاز فى ذلك ، وجاؤوا بما تأنف منه الأذواق ، ويأخذه المعاصرون على أنه من وجوه الهزء والسخرية . فمن غرائب المخلوقات التى

---

( ١ ) نهاية الأرب ج ٢ ص ١٠٠ .
( ٢ ) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣٣ .

تستحق أن تكون أعجوبة العصور تلك الجارية التى فتن بها صاحبها فقال فيها :

من رأى مثل حبتى تشبه البدر إذ بدا
تدخـــل اليوم ثم تد خل أردافها غدا(١)

وفى اعتقادنا أن سواد العرب لم يشاطروا شاعرنا هذا فى فهمه الجمال وتذوقه هذا اللون العجيب المعجز ، بل كانوا ، كما قدمنا ، يؤثرون العبلاء(٢) ، ويفضل الجهابذة منهم المجدولة الجسم ، ويقدمونها على سواها ، ويطلب القيانون فى هذا النوع الأثمان الباهظة لأنها الزى الشائع المحبب إلى النفوس . والمجدولة من النساء ، فى منزلة بين السمينة والممشوقة ، ولا بد أن تكون كاسية العظام والعروق فى غير ترهل ، ملساء الجلد بحيث تزلق اليد عنها .

البيضاء المفضلة

أما وقد دخلنا الخدر ، وأقلقنا على العربى راحته ، وأخذنا نتفحص ما فى كناسه من ملاحة وحلاوة ، وأدركنا إدراكاً عاماً أية طلعة يفضل صاحبنا ، فلا بأس ، وقد أسأنا إليه فى

---

( ١ ) نهاية الأرب ج ٢ ص ٩٩ .
( ٢ ) رسائل الجاحظ ٢٧٤ — ٢٧٥ .

مباذله . أن نتفحص هذه المرأة عن كثب ، ونتبين تقاسيم الجمال فيها جزءاً جزءاً وعضواً عضواً تاركين ما لا يسمح لنا المكان بعرضه وتفصيله .

العربى الأسمر يفضل البيض من الجوارى . ولا سيما الرقيقات البشرة . الصافيات اللون ، اللواتى يضرب لونهن بالغداة إلى الحمرة وبالعشى إلى الصفرة ، وخص السمر والسود أحياناً بالخدمة والسعى بين المنزل والسوق . والبيض الصفر اللواتى جن بهن كن كثيرات العدد ، بل هن الغالبات بينهن ، يحتفظن بظل الخدر ، فلا يتعرضن لأشعة الشمس المحرقة التى تحيلهن إلى السمرة . وليس تهالك النساء على الظل ببعيد عنا ، فقد كن يتهربن من الشمس ، وما تتركه فى جلودهن من آثار فضاحة ، ويؤثرن الفيْء . فسراديب بغداد الظليلة الرطبة كانت أحب إليهن من الخيوط الذهبية التى تقطرها الشمس خلال سعف النخيل . وكان لكل منهم شمس تضىء نهاره تهديه طريقه فى مضطرب حياته الكادحة ، وشمس أو شموس يخبئها فى الخدر لتنير له ليله ، وتشيع فى نفسه وجسمه الدفء . ولا شك أن الناثر الذى وصف إحداهن قد أجاد فى تمثيل ما يحب العربى عند ما قال : جلد من لؤلؤ رطب ، مع رائحة المسك الأذفر ، فى كل عضو شمس طالعة .

غير أننا نسيء إلى الحقيقة إذا زعمنا أن العرب جميعاً كانوا يفضلون البيض ؛ فأمهات الفاتحين وزوجاتهم وأخواتهم وبناتهم كن سمراً . تشع فى عيونهن آمال المستقبل الطالع ، وأحلام الغد المشرق . ولكن البيض كن بضاعة جديدة ، ولكل جديد بهجة ومقام ؛ وإخواننا العرب يودون أن تمتزج سمرة الجزيرة ببقق الشمال .

لعل كثيرين قرأوا ما دار بين البيض والسمر من محاورات طريفة فى حلقات الأدب أو مجالس المجون . حيث يتفنن كل فريق فى إظهار فضائله ، وعيوب خصمه . وقد أعجبنا ببراعة العرض ، ودقة الحجة فى ذلك الجدل الذى يعنف أحياناً بين الجنس اللطيف فى حضرة الخليفة أو الأمير أو المولى ، إلى أن ينتصر أحدهما بنكتة بارعة ، أو ببيت من الشعر ، فيكافئ السيد جاريته المنتصرة ببدرة من المال ، ويطيب خاطر المندحرة ببدرة أخرى . فالمشادة عنيفة بين السمرة والبياض ، وهى خصومة لمّا تنته ، ولن تنتهى لأنهما لونان من الجمال ، ليس أحب من أحدهما إلا الآخر .

## السوداء المستلطفة

غير أن هناك لوناً ثالثاً من الجمال لا يخطر لنا على بال ،

هو اللون الأسود الذى تسبغه الطبيعة على الزنجيات أو على الأقوام البيض التى طال مكثها فى الأقاليم الحارة . فقد فتن كثير من العرب بالسود ، وكان لهن شعراؤهن والمعجبون بهن ، وارتقت بعضهن إلى مكانة رفيعة فى المجتمع . وقد قال الشاعر فى غانية سوداء :

أشبهك المسك وأشبهته قائمة فى لونه قاعده
لا شك إذ لونكما واحد أنكما من طينة واحده[١]

وهذا المسك والطيب هما من خصائص السود ، فكأن أجسامهن صيغت منهما وحدهما ، لذلك تردد هذا المعنى فى كل ما نظم فيهن ، منه ما قاله بشار فى جاريته :

وغادة سوداء براقة كالماء فى طيب وفى لين
كأنها صيغت لمن نالها من عنبر بالمسك معجون[٢]

وهذان الشاعران مقتصدان فى حب السواد ، لأنهما لا يزهدان فى البياض والسمرة ، ولكن المغالاة دفعت آخر إلى القول :

ومن يك معجباً ببنات كسرى فإنى معجب ببنات حام[٣]

---

( ١ ) نهاية الأرب ج ٢ ص ٣٨ .
( ٢ ) الأغانى ج ٣ ص ١٩٣ .
( ٣ ) عيون الأخبار ج ٤ ص ٤٠ .

وثانياً إلى القول :

أحب لحبها السودان حتى  أحب لحبها سود الكلاب(١)

كان لرواج سوقهن ، وإقبال الرجال عليهن ، ولغرام الشعراء بهن أن أخذن بالتأنق ، وعمدن إلى التصنع أسوة بشقيقاتهن البيض والسمر . فقلدنهن فى كل شىء حتى فى الاكتحال ، رغم أن الكحل لا يبدو عليهن لسواد بشراتهن ، مما دفع ظريفاً من الشعراء إلى القول فى إحداهن :

كأنها والكحل فى مرودها  تكحل عينيها ببعض جلدها(٢)

وهكذا نرى فى سوق الجمال ألواناً وأشكالا ، ولكل منها ميزة خاصة ، وطلاب مها لكون ، بل نقرب من الواقع إذا قلنا إن كثيراً من الحدور العربية كانت تضم كل هذه الألوان ، وما يتشعب منها من بياض ممزوج بالحمرة ، إلى سمرة تقرب من البياض ، إلى صفرة سندية وصينية ومغولية . فإن مائدة الجمال التى تناول منها العربى غذاءه متسعة الأطراف ، شاسعة الأبعاد ، بوسعه أن يأخذ منها ما يروق لذوقه العام ، ولرغبته الطارئة . عرف لكل واحدة من هؤلاء النسوة فضلها وسر حلاوتها . وشهد ما بينهن من عداوة ، وما فى صدورهن من تحاسد وتنافس

---

( ١ ) عيون الأخبار ج ٤ ص٤٣ .

( ٢ ) عيون الأخبار ج ٤ ص٤١ .

على اكتساب عطفه ؛ وهو راض بهن جميعاً ، وبما هن عليه من تسابق فى إرضائه والفوز بعطفه . فإن هذا التحاسد كان يدفعهن إلى تحويل كيدهن عنه إلى بعضهن ، وإلى التنافس فى إظهار مفاتن جمالهن . وفى كلا الحالين يفوز السيد المولى براحة البال وكمال المتعة .

## الليل المنسدل

إن الطباق الذى أغرم به الشعراء فى جميع عهودهم ، وسعوا وراءه جهدهم حتى أضلهم أحياناً المعانى السامية ؛ فاكتفوا بالتزواج اللفظى ، هذا الطباق الشعرى نجد له أثراً فى فهم العربى جمال المرأة . فليس أحب إليه من تلك التى يتلاقى فيها النهار بوضحه ، والليل بقتومته : البشرة البيضاء الناصعة ، والشعر الفاحم . فى تآلف هذين اللونين وتجاورهما صورة فاتنة تؤلف أبرع المشاهد وأحبها إليه . وأفضل ما يشتهيه هو انسدال هذا الشعر الفاحم الطويل على الجسم البض . يلف بعضه بغلالته القاتمة ، فينصع بياض ما تبقى منه . وتنجلى أمامه الصورة التى مثلها الشاعر بقوله :

بيضاء تسحب من قيام شعرها  وتغيب فيه وهو جثل أسحم

فكأنها فيه نهار ساطع وكأنه ليل عليها مظلم[١]

وهذا الشعر المنسدل لا يحجب أحياناً صاحبته حسب ، بل يغزر ويطول ، وتعنى به الماشطات حتى يستر أحياناً حاملته ومحبها ، كما حدث للشاعر القائل :

نشرت علىّ ذوائباً من شعرها حذر الكواشح والعدو المحنق
فكأننى وكأنها وكأنـــه صبحان باتا تحت ليل مطبق[٢]

وتمثيل الشعر بالليل قديم العهد ، يرقى إلى أبعد من الشعر العربى ، ولا يزال يسيل على أقلام الناظمين إلى الآن ، ومنهم أحمد شوقى القائل :

« ودخلت فى ليلين فرعك والدجى »

ولعله استعار التشبيه واللفظ من القدماء ، بل الأصح القول استقاه من قول شاعر قصى العهد معروف بابن المنذر ، جاء فيـــه :

فأمسيت فى ليلين بالشعر والدجى
وشمسين من خمر وخد حبيب[٣]

كان الشعر يضفر ثلاث ذوائب تنسدل على الظهر ، وتسمى

---

(١) عيون الأخبار ج ٤ ص ٢٧ .
(٢) نهاية الأرب ج ٢ ص ١٩ .
(٣) نهاية الأرب ج ٢ ص ٢٠ .

غدائر . وتطول أحياناً حتى تبلغ موطأ القدمين . كما قال الشاعر :

دعت خلاخيلها ذوائبها فجئن من فرقها إلى القدم(١)

وهو عادة ناعم الملمس سبط كث ، تنفق صاحبته فى تسريحه وتطييبه قسما من وقتها ، وتغالى فى ضفره وتنسيقه ليبدو فتنة للناظرين .

الغلاميات

غير أن الجوارى اللائى عرفهن العهد العباسى ، وجئن بعد أفول الذوق العربى الخالص ، أخذن بالسطو على هذا الليل المنسدل تقليماً وتشذيباً ، متشبهات بالفتيان : وهن المطمومات الشعر المسميات بالغلاميات . وتعداهن هذا الزى إلى الحرائر فى قصور الخلفاء والأمراء والقواد ، فأخذت المرأة عهدئذ بقص الذؤابة إلى مستوى الرقبة ، وبمد الوفرة حول الأذن والعقرب على الجبين ، أو برسم طرة عليه . وذهب بعضهن إلى رفع شعورهن ورسم هيئات متعددة ، وجعلن حول رؤوسهن عصابة مزركشة بالألوان ، وكتبن عليها بالخيوط الذهبية أو الفضية شعراً أو آية كريمة . وأكثرهن يؤثرن الشعر الغزلى تقرباً من مواليهن ومغالاة فى الفتنة : وقد رسم أحدهم على عصابة جارية له البيتين التاليين :

---

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٢٠ .

تمت ! وتم الحسن فى وجهها . فكل شىء ما سواها محال
للناس فى الشهر هلال ولى فى وجهها كل صباح هلال

ويجعل بعضهم فى عصابات الجوارى درأ ، ينثرونه بأشكال هندسية أو ينسجون به خطوطاً وحروفاً وكلمات . ويجد الشعراء فى مثل هذه العصابات موضوعاً شائقاً للنظم والغزل ، فيرون مثلا أن الدر يزدان بالوجه الذى تحته كقول أحدهم :

وإذا الدر زان حسن وجوه كان للدر حسن وجهك زينا[١]

وغالين أحياناً فى هذه العصابات المزركشة المعرشة بالرسوم والخطوط ، وفى رفع شعورهن تاجاً فوق مفارقهن ، مما أثار المحافظات . فأعملن ألسنتهن فى النقد والتقريع . كتلك الأعرابية التى دخلت على حمدونة بنت الرشيد ، فلما خرجت سئلت عنها فقالت : « وما حمدونة . . . والله لقد رأيتها ، وما رأيت طائلا . كأن بطنها قربة . وكأن ثديها دبة ، وكأن . . . وكأن وجهها وجه ديك قد نفش عفريته ، يقاتل ديكاً »[٢] .

وأعرابيتنا هذه التى وفدت على حمدونة المترفة الغارقة فى فنون الرخاء والأزياء تمثل أفضل تمثيل المدرسة النسائية المحافظة ، كما أن ابنة الخليفة الرشيد ترمز إلى المدرسة المتطرفة التى تذهب

---

( ١ ) نهاية الأرب ج ٢ ص ٣٤ .

( ٢ ) عيون الأخبار ج ٤ ص ٣٩ .

فى الغواية والتجديد كل مذهب . ولقد تزوج المتوكل من قرشية هى ريطة بنت العباس بن على فسألها أن تطمّ شعرها وتتشبه بالحوارى المملوكات فأبت عليه ؛ فهددها بالطلاق ، فاختارت الفرقة على اتباع الأساليب الدخيلة(١).

التجمل

عمدت الحوارى إلى أساليب اصطناعية متعددة فى إظهار جمالهن ، منها العناية بالحواجب وتدقيقها وترقيقها ومدها وإحداث البلج بالإفراج بين الحاجبين ، لأن العرب كانوا يحصون ذلك فى شروط الجمال . وأدت الوسائل التجميلية إلى إخفاء العيوب التى تختص بها الحواجب من قرن ، أى اتصال الحاجبين ، وزبب ، أى كثرة الشعر فيهما ، ومعط ، أى تساقط الشعر عن بعض أجزائهما ، واستعاضت بعض النسوة دقيق الكحل عن الشعيرات المتهافتات ، مما يدل على المستوى الذى بلغه فن التجميل آنذاك بعد أن نقلت كل واحدة من هؤلاء الجليبات أسراره عن قومها ، وأضافت ما تعرفه إلى حيل رفيقاتها وأساليبهن .

أما العيون التى استرعت أنظار الشعراء ، وانتباه الاختصاصيين فى فنون الجمال فهى الدعجاء ، أى الوسيعة الشديدة السواد ،

---

(١) المحاسن والأضداد ص ١٨٢ .

القاتمة الأهداب بدون كحل ، الصافية الحدقة التى تبدو وكأنها تغالب النوم فى نعاسها الدائم ، أو التى قال عنها أبو نواس :

ضعيفـــة كر الطرف تحسب أنهـــا
قريبـــة عهد بالإفاقة من سقم(١)

نغالى إذا شئنا تتبع المرأة فى كل ما كانت تقوم به لإبراز محاسنها ، ولكننا نظلمها إذا زعمنا أنها أهملت نفسها ، ولم تعن بإظهار ما لديها فى أفتن مطلع وأبهى أسلوب . مما عرفته فرشاة للأسنان طبيعية تفوق فائدة ونظافة ما نستعمله فى منازلنا ، وتنبهت إلى السواك المأخوذ من الأراك ، فاستخدمته فى تنظيف أسنانها وإخراج ما علق بينها من بقايا الطعام . ولعل بعضنا قد ساعدهم الحظ على استعمال هذه الطريقة القديمة العهد فتبين لهم أن السواك لا يقل نفعاً عن فرشاتنا المصنوعة من العظم أو النيلون أو وبر الخنزير . وكان من جراء ذلك أن فتن الشعراء بشجر الأراك الذى تأخذ منه الحبيبة سواكها ، فتمنوا أن يكونوا واحدة منها ، للثم ما يتقدم الأسنان . وتناقلوا الأحاديث عنها ، منها قول الشاعر :

نقل الأراك بأن ريقة ثغره  من قهوة مزجت بماء الكوثر(٢)

---

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٥١ .
(٢) نهاية الأرب ج ٢ ص ٦٨ .

وقول الآخر :

أقول لمسواك الحبيب لك الهنا    بلثم فم ما ناله ثغر عاشق(١)

أما شروط الحسن فى هذه الناحية من المرأة فلا تختلف عنها فى الوقت الحاضر من رقة الأسنان واستوائها ، أو الشنب كما يقولون ، وحسن تنضيدها واتساقها . غير أنهم كانوا يستحبون التفليج ، وهو الانفراج القليل بينها من غير تباعد مع المحافظة على الحسن والاستواء والبياض وما سلف من الصفات .

ومن الجمال الزائل الذى لا تأبه له اليوم ، وكان له طلابه عهد ذلك ، الخال الذى ينبت فى الخد . فقد أحرق كثيراً من المهج . وأوحى العديد من المقاطع الشعرية . والشعراء سريعو التأثر والالتهاب ، يثورون لأتفه الأمور . لبعض شعيرات تظهر فى الخد . ومن العدل القول إن بعضهم اهتدى إلى تشبيهات لا بأس بها ، وإن كانت بادية التصنع ، كقول أحدهم :

كأن خديه ديناران قد وزنا    وحرر الصيرفى الوزن واحتاطا

فخف إحداهما عن وزن صاحبه

فحط فوق الذى قد خف قيراطا (٢)

ولسنا نعجب لتحول الأذواق ، فقد رأى بعضهم آنذاك فى

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٦٧

(٢) نهاية الأرب ج ٢ ص ٧٩

obeikandl.com

الجدرى الذى سطا على وجه الحبيبة أثراً من آثار الجمال كقول شاعرهم :

أيهـــا العائبون وجهاً مليحاً  نثر الحسن فيه نبذ خدوش
أى أفق بَها بغير نجوم  أى ثوب زها بغير نقوش (١)

obeikandl.com

(١) نهاية الأرب ج ٢ ص ٤٠